الباب الخامس

فى آيات من كتاب الله تعالى تكلم على تبيين معناها وإظهار فحواها

قال الله سبحانه:

﴿الحمد لله رب العالمين﴾[1].

قال الشيخ رضي الله عنه: علم الله عجز خلقه من حمده، فحمد نفسه بنفسه فى أزله، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده، فقال: الحمد لله رب العالمين، أى قولوا الحمد لله رب العالمين، أي الحمد الذى حمد به نفسه بنفسه هو له لا ينبغى أن يكون لغيره، فعلى هذا تكون الألف واللام عهديّتين.

وسمعته يقول فى قوله عزّ وجل:

﴿إياك نعبد وإيّاك نستعين﴾[2].

إياك نعبد شريعةً، وإياك نستعين حقيقةً.

إياك نعبد إسلامٍ، وإياك نستعين إحسان.

إياك نعبد عبادةً، وإياك نستعين عبودية.

إياك نعبد فرق، وإياك نستعين جمع.

واعلم رحمك الله بإقباله عليك بودّه، وجعلك من الراعين لعهده، أن الله سبحانه طلب من العباد أن يعبدوه، واقتضى منهم أن يسجّلوا بذلك على أنفسهم نطقًا كما قاموا به علمًا.

واقتضى منهم أن يفردوه.

واقتضى منهم أن تنتظم العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وحقائق وجوداتهم الباطنة.

واقتضى منهم الرجعَى إليه من دعوى القيومية فى العبادة التبرّى من الحول والقوّة.

فلما قام العبد لله بالعبادة عملاً، اقتضى الحق أن يعترف بها نطقًا: ليكون ذلك معاهدة بينه وبين الحق عزّ وجلّ، حتى إذا انفلتت نفسه عن القيام بالعبادة وثقلت عليها ملامة التكليف، قامت الحجّة على العبد بما أعطى الله سبحانه من الاعتراف بالعبادة له وأنه لا يعبد غيره لقوله: ﴿إياك نعبد﴾، واقتضى من العباد أن تستوعب العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وعوالمهم الباطنة بإتيانه بالصيغة هكذا: ﴿نعبد﴾ وإعراضه عن التعبير بالهمزة المفردة بالمتكلم لأن النون إنما تكون للواحد المعظم نفسه، أو العظيم فى نفسه، وليس هذا موضع هذين المعنيين؛ إذ العبد لا يبتدئ بين يدى الله بوصف

(١) الفاتحة: ٢.   (٢) الفاتحة: ٥.

عظمة، فلم يبق إلا أن يكون للواحد ومعه غيره، وذلك ما أشرنا إليه من الجوارح الظاهرة والحقائق الباطنة.

وإما أنه اقتضى منهم الرجعَى إليه من دعوى القيومية فى العبادة لأنه لما قال: ﴿إياك نعبد﴾ فأضاف العبادة إليهم، واقتضى منهم أن يعترفوا بذلك قيامًا بدائرة الفرق التى عليها يترتب التكليف، أردف ذلك بقوله: ﴿وإياك نستعين﴾ كيلا يدّعى العباد معه أنهم قاموا بالعبادة بأنفسهم فأراد منه أن يوفوا الحقيقة حقّها والشريعة حقّها؛ فلذلك جمع بين الأمرين: القيام بالعبادة لربوبيته، والتبرّى من الحوْل والقوّة مع إلهيته.

ثم قال سبحانه وتعالى:

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾(٣).

فقال الشيخ رضى الله عنه: بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل.

وهذا الجواب ذكره ابن عطية فى تفسيره وبسطه الشيخ رضى الله عنه فقال:

عموم المؤمنين يقولون: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أى: بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين.

والصالحون يقولون: اهدنا الصراط المستقيم. معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء.

والشهداء يقولون: اهدنا الصراط المستقيم أى بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل فإنهم حصل لهم درجات الشهداء وفاتهم درجات الصدّيقية.

والصدّيقون يقولون: اهدنا الصراط المستقيم أى بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات الصدّيقية وفاتهم درجات القطبية.

والقطب يقول: اهدنا الصراط المستقيم، أى بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد بما ليس بحاصل، فإنه قد حصل رتبة القطبانية وفاته علم إذا شاء الله أن يطلعه عليه أطلعه.

وقال فى قوله عزّ وجلّ:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾(٤).

كل موضع ذكر فيه المصلّون فى معرض المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة إمّا بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها، قال الله سبحانه:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾.

---

(٣) الفاتحة: ٦.

(٤) البقرة: ٣.

﴿ربِّ اجعلنى مقيم الصلاة﴾(٥).

﴿أقم الصلاة﴾(٦).

﴿وأقامَ الصلاة﴾(٧).

﴿وأقاموا الصلاة﴾(٨).

﴿والمقيمى الصلاة﴾(٩).

ولما ذكر المصلّين بالغفلة قال:

﴿فويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾(١٠).

ولم يقل فويل للمقيمين الصلاة.

والإقامة هو أنه إذا صلّى المؤمن صلاةً فتقبلت منه خلق الله من صلاته صورةً فى ملكوته راكعةً ساجدةً إلى يوم القيامة وثواب ذلك لصاحب الصلاة(١١).

وقال فى قوله سبحانه:

﴿إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً﴾(١٢).

«بقرة كل إنسان نفسه، والله أمرك بذبحها»(١٣).

وقال فى قوله عزّ وجل:

﴿ما أصابك من حسنةٍ فمن الله، وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك﴾(١٤).

قيل: إنما وقع التفصيل فى العبارة تأديبًا من الله لنا فأضاف المحاسن إليه وأضاف المساوئ إلينا وإن كان فعل العبد كله خلق الله تعالى: حسنه وسيئه، كما قال:

﴿فأراد ربُّك أن يبلغا أشدَّهما﴾(١٥).

فأضاف ذلك إلى الله، وقال فى السفينة:

﴿فأردت أن أعيبها﴾(١٦).

ولم يقل: فأراد ربك أن يعيبها أدبًا فى التعبير، كما قال إبراهيم عليه السلام:

---

(٥) إبراهيم: ٤٠.

(٦) الإسراء: ٧٨.

(٧) التوبة: ١٨.

(٨) فاطر: ٢٩.

(٩) الحج: ٣٥.

(١٠) الماعون: ٤، ٥.

(١١) إقامة الصلاة: أداؤها، كما يحبّ الله ورسوله، وهو أن يتجرّد فيها الله سبحانه وتعالى تجردًا كاملًا واقفًا بين يديه مستشعرًا عظمته وجلاله وجماله، وهذا النوع من الصلاة هو المأمور به، وهو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر، وهو الذى يفزع إليه الإنسان إذا حزبه أمر أو حزنه كما كان يفعل الرسول ﷺ، فييسّر الله الأمر ويقضى الحاجة.

(١٢) البقرة: ٦٧.

(١٣) إن أبا العباس رضى الله عنه يقول بالمعنى الأصلى للآية الكريمة، وباب الإشارات فيه متسع، ولا ضير ما دام المعنى الأصلى يقرّه المفسر، وسيشير المؤلف إلى ذلك بعد.

(١٤) النساء: ٧٩.

(١٥) الكهف: ٨٢.

(١٦) الكهف: ٧٩.

﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾(١٧).

فأضاف المرض لنفسه، والشفاء لله تعالى.

ومنهم من قال: إن ذلك داخل فى مضمونِ القول، وإن هذا التفصيل حكاه الله عنهم، والتقدير: فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا فى قولهم:

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

ورد عليهم بقوله:

﴿قل كل من عند الله﴾.

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه:

﴿يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل﴾(١٨).

يولج المعصية فى الطاعة ويولج الطاعة فى المعصية(١٩)، يطيع العبد الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يفعلها ويطلب من الله العوض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات، ويذنب الذنب فيلجأ إلى الله فيه ويعتذر منه ويستصغر نفسه ويعظم من لم يفعله، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات، فأيها الطاعة وأيها المعصية؟!

وقال رضى الله عنه: الفَتَى من كسر الأصنام، قال الله تعالى:

﴿قالوا سمعنا فتًى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾(٢٠).

وقال رضى الله عنه فى قوله عزّ وجلّ:

﴿أمَّن يُجِيب المضطرَّ إذا دعاه﴾(٢١).

الولىّ لا يزال مضطرا.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب، فإذا زالت زال اضطرارهم، وذلك لغلبة دائرة الحسّ على مشهدهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله دائم؛ لأن الاضطرار تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن، وكلِ ممكن مضطر إلى ممد يمده، وَمَدِدٍ يمدّه به، وكما أن الحق سبحانه هو الغنىّ أبدًا، فالعبد مضطر إليه أبداً، ولا يزايل العبد هذا الاضطرار لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولو دخل الجنة، فهو محتاج إلى الله فيها، غير أنه غمس اضطراره فى

---

(١٧) الشعراء: ٨٠.

(١٨) الحج: ٦١ - لقمان: ٢٩ - فاطر: ١٣ - الحديد: ٦.

(١٩) نعود فنقول: إن المعنى اللغوى العادى للآية الكريمة، يقرّ به أبو العباس رضى الله عنه، ويعتمده، وهناك إشارات تفيض بها الآية الكريمة لا تتعارض مع المعنى العادى، ولا تنقضه، وفضل الله فى هذه الإشارات واسع، وهذا الذى يقوله يصدق على كل ما يأتى من باب الإشارة فى الآية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة وهو الذى سينبّه عليه ابن عطاء الله بعد قليل.

(٢٠) الأنبياء: ٦٠.

(٢١) النمل: ٦٢.

obeikandi.com

المنّة التى أفرغت عليه ملابسها، وهذا هو حكم الحقائق: أن لا يختلف حكمها لا فى الغيب ولا فى الشهادة ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

فالعلم صفته الكشف أى علم كان وفى أى وقت كان، والإرادة صفتها التخصيص أى إرادة كانت، وفى أى وقت كانت، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره.

وقد عاتب الله قومًا اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار، فلما زالت زال اضطرارهم، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وإذا مسّكم الضرُّ فى البحر ضلَّ مَن تدعون إلا إياه فلما نجّاكم إلى البر أعرَضتم﴾(٢٢) الآية.

وقال سبحانه:

﴿وإذا مسَّ الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا فلما كشفنا عنه ضُرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرٍّ مسَّه كذلك زيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون﴾(٢٣).

وقال تعالى:

﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعًا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾.

﴿قل الله ينجّيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾(٢٤).

إلى غير ذلك من الآيات الواردة فى هذا المعنى.

ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم، سلّط الحق عليهم الأسباب المثيرة للاضطرار، ليعرفوا قهر ربوبيته وعظمة إلهيّته وكبريائه.

ومن الدليل على فخامة رتبة الاضطرار أن الحق سبحانه أوقف الإجابة عليه فقال:

﴿أمَّن يجيب المضطرَّ إذا دعاه﴾(٢٥).

وإذا أراد الله سبحانه أن يعطى عبدًا شيئًا وهبه الاضطرار إليه فيه، فيطلب باضطرار، فيعطى، وإذا أراد الله أن يمنع عبدًا أمراً منعه الاضطرار إليه فيه، ثم منعه إياه وقامت حجة الله على العبد: لو اضطررت إلينا لأعطيناك. فلا يخاف عليك أن تضطر وتطلب فلا تعطى، بل يخاف عليك أن تحرم الاضطرار، فتحرم الطلب، أو تطلب بغير اضطرار فتحرم العطاء.

وقال فى قوله عز وجل: ﴿كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم أنَّى لك هذا قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾(٢٦).

ثم قال بعد ذلك:

﴿وهزِّى إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطبًا جنيًّا﴾(٢٧).

---

(٢٢) الإسراء: ٦٧، وتمامها: ﴿وكان الإنسان كفورا﴾.
(٢٣) يونس: ١٢.
(٢٤) الأنعام: ٦٣، ٦٤.
(٢٥) النمل: ٦٢.
(٢٦) آل عمران: ٣٧.
(٢٧) مريم: ٢٥.

فذكر بعض الناس فى هذا تأويلاً لا يرضى، ولا ينبغى أن يلتفت إليه، وهو أنه كان حبّها لله وحده، فلما ولدت انقسم حبها، وليس الأمر كما قال هذا القائل، لأنها صدّيقة كما أخبر الله عنها: ﴿وأمه صدّيقة﴾(٢٨).

والصِّدّيق والصِّدِّيقة لا ينتقلان من حالة إلاّ إلى أكمل منها، ولكنها كانت فى بدايتها متعرفًا إليها بخرق العادات وسقوط الأسباب فلما تكمل يقينها أرجعت إلى الأسباب فالحالة الثانية أتمّ من الحالة الأولى.

وقال رضى الله عنه: الفتوّة: الإيمان والهداية قال الله تعالى:

﴿إنهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم وزدناهم هدى﴾(٢٩).

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه حاكيًا عن الشيطان:

﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾(٣٠).

ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم، لأن فوق: التوحيد، وتحت: الإسلام، والشيطان لايمكنه أن يأتى المؤمن من توحيد ولا من إسلام.

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه:

﴿واتّخذ الله إبراهيمَ خليلاً﴾(٣١).

قال سمّى خليلاً لأنه خالل سرّه محبّة الله تعالى قال الشاعر:

قد تخلَّلتَ مسلك الروح منّى ... ولذا سمّى الخليل خليلاً
فإذا ما نطقت كنتَ كلامى ... وإذا ما صمتُّ كنتَ العليلا

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿وإبراهيم الذى وفى﴾(٣٢).

قال: «وفّى» بمقتضى قوله:

﴿حسبى الله﴾.

وقال رضى الله عنه فى قوله عزّ وجل:

﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾(٣٣).

قال: من طاعاتهم ومن أعمالهم التى قاموا لله تعالى بها فى ليلهم أن يشهدوها من أنفسهم.

ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه: أن الله عزّ وجلّ وصفهم قبل ذلك بقوله:

﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾(٣٤).

---

(٢٨) المائدة: ٧٥.
(٢٩) الكهف: ١٣.
(٣٠) الأعراف: ١٧.
(٣١) النساء: ١٢٥.
(٣٢) النجم: ٣٧.
(٣٣) الذاريات: ١٨.
(٣٤) الذاريات: ١٧.

ثم قال:

﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾.

فلم يتقدم منهم فى ليلهم ذنوب يكون استغفارهم منها.

وقد جاء فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ كان إذا سلَّم من صلاته استغفر الله ثلاثًا.

وقال الواسطى:

العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأعواض عليها.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فلْيفرحوا هو خيرٌ ممّا يجمعون﴾(٣٥).

أى من طاعتهم وأعمالهم، ومثل ذلك:

﴿ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون﴾(٣٦).

وقال رضى الله عنه فى قوله عزّ وجلّ:

﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً﴾:

ولم يقل بنبيّه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله.

وإنما كان كذلك لأنه أراد أن يفتح باب السريان للأتباع فأعلمنا بأن الإسراء من بساط العبودية، فالنبى ﷺ كان له كمال العبودية فكان له كمال الإسراء، أسرى بروحه وجسمه وظاهره وباطنه.

والأولياء لهم قسط من العبودية فلهم قسط من الإسراء، يسرى بأرواحهم لا بأشباحهم.

وسمعته رضى الله عنه يقول فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿إن المتقين فى جنات ونهر، فى مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر﴾(٣٧).

﴿إنّ المتقين فى جنات ونهر﴾ فى هذه الدار وفى تلك الدار، فى الدنيا، فى جنات العلوم وأنهار المعارف، وفى الآخرة، فى الجنة التى وعدوا بها، فى مقعد صدق، فى هذه الدار وفى تلك الدار، عند مليك مقتدر فى هذه الدار وفى تلك الدار.

وبسط كلام الشيخ رضى الله عنه هو:

أن نعيم الجنة الكائن فيها يكون رقائقه معجّلة للمتقين فى هذه الدار، فما كان لهم فى الجنة حسًّا يكون لهم فى هذه الدار معنى.

ومثل هذه الآية قوله سبحانه:

﴿إن الأبرار لفى نعيم﴾(٣٨).

---

(٣٥) يونس: ٥٨.

(٣٦) الزخرف: ٣٢.

(٣٧) القمر: ٥٤، ٥٥.

(٣٨) الانفطار: ١٣، والمطففين: ٢٢.

أى فى هذه الدار وفى تلك الدار فى الدنيا، فى نعيم الشهود وفى الآخرة فى نعيم الرؤية.

وكذلك قوله:

﴿وإن الفجّار لفى جحيم﴾.

أى فى هذه الدار، وفى تلك الدار، فى هذه الدار فى جحيم القطيعة وفى تلك الدار فى جحيم العقوبة، وقوله:

﴿فى مقعد صدق﴾.

أى فى هذه الدار، وفى تلك الدار، فى هذه الدار فى مقعد صدق العبودية وفى تلك الدار فى مقعد صدق الخصوصية.

﴿عند مليك مقتدر﴾.

فى هذه الدار وفى تلك الدار، فى هذه الدار لهم عنديّة الإمداد وفى تلك الدار لهم عنديّة الإشهاد.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿ما خلق الله ذلك إلّا بالحق﴾(٣٩):

الحق الذى خلق الله به كل شىء كلمة:

كن.

قال الله سبحانه:

﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾(٤٠).

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه:

﴿أن اشكر لى ولوالديك﴾(٤١):

إنما قرن شكرهما بشكره لأنهما أصلٌ فى وجودك.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿وما تلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهشُّ بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى، قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حيةٌ تسعى، قال: خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾(٤٢).

يقال للولى: وما تلك بيمينك أيها الولى؟

قال: هى دنياى، أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمى. وغنمه أعضاؤه، ولى فيها مآرب أخرىٰ.

فيقال له: ألقها فناءً عنها.

فألقاها.

فيكشف له عن حقيقتها فإذا هى حيّة تسعى.

---

(٣٩) يونس: ٥.
(٤٠) الأنعام: ٧٣.
(٤١) لقمان: ١٤.
(٤٢) طه: ١٧ – ٢١.

ثم يقال له:

﴿خذها ولا تخف﴾.

فلا يضره أخذها؛ لأنه أخذها بإذن الله كما ألقاها بإذن الله، فأخذها من الوجه الذى به ألقاها، فأطاع الله فى أخذها كما أطاعه فى إلقائها.

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه:

﴿ويوم تَشقَّق السماءُ بالغمام، ونزِّل الملائكة تنزيلا، المُلْكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن﴾(٤٣).

إنما قال للرحمن ولم يقل للقهار ولا للعزيز؛ لأن تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة مظهران من مظاهر القهر والسطوة، فلو قال للقهار أو للعزيز لم يطق ذلك العباد وتفطّرت قلوبهم، فرفق بهم أن قال:

﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾.

وهكذا قوله:

﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدًا﴾(٤٤).

ولم يقل إلى القهار ولا إلى العزيز؛ لأن الحشر وهو المطلع شديد فلاطفهم برحمانيته فى ظهور سلطان قهره.

وقال رضى الله عنه وقد سئل عن قوله تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاتِهِ ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون﴾(٤٥).

فقال له القائل: من أين للعبد أن يتقى الله حق تقاته، ومن أين له أن لا يموت إلّا وهو مسلم؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

فكانوا قد خوطبوا أوّلا أن يتقوا الله حق تقاته، وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ثم خفّف عنهم بقوله:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

قال الشيخ رضى الله عنه: ويمكن الجمع بين الآيتين:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

أى فى جانب الأعمال وقوله:

﴿اتقوا الله حق تقاته﴾.

أى فى جانب التوحيد، وقوله:

﴿ولا تموتن إلّا وأنتم مسلمون﴾:

---

(٤٣) الفرقان: ٢٥، ٢٦.

(٤٤) مريم: ٨٥.

(٤٥) آل عمران: ١٠٢.

أى لا تتعاطوا من الأعمال إلاّ أعمالاً إذا متّم عليها متّم مسلمين.

وقال رضى الله عنه: صلّيت خلف الشيخ صلاة الصبح فقرأ بحم عسق حتى انتهى إلى قوله تعالى:

﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾.

فخطر لى أنها الحسنات.

﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾.

فخطر لى أنها العلوم.

﴿أو يزوّجهم ذكرانًا وإناثًا﴾.

علومًا وحسنات.

﴿ويجعل من يشاء عقيمًا﴾.

لا علم ولا حسنة.

فلما سلّم الشيخ من الصلاة استدعانى وقال: لقد وجدت فهمكَ فى الصلاة يهب لمن يشاء إناثًا الحسنات، ويهب لمن يشاء الذكور العلوم، أو يزوّجهم ذكرانًا وإناثًا علومًا وحسنات ويجعل من يشاء عقيمًا لا علم ولا حسنة.

فعجبت من اطلاع الشيخ على ذلك.

فقال: أتعجب من اطلاعى على فهمك فى الصلاة، قد فهم فلان كذا، وفهم فلان كذا، حتى عدّ أفهام الجماعة الذين خلفه.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدوًا﴾(٤٦).

فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان، فشغلهم ذلك عن محبّة الحبيب، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدوّ أى وأنا لكم حبيب فاشتغَلوا بمحبته فكفاهم مَنْ دونه.

قيل لبعضهم: كيف صنْعك مع الشيطان؟ فقال: وما الشيطان، نحن قوم صرفنا همنا إلى الله، فكفانا مَنْ دونه.

وقال رضى الله عنه: قرأت مرة ﴿والتين والزيتون﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى:

﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين﴾.

ففكرت فى معنى هذه الآية، فكشف لى عن اللوح المحفوظ، فإذا مكتوب فيه: لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم روحًا وعقلاً، ثم رددناه أسفل سافلين نفسًا وهوى.

وقال فى قوله سبحانه:

---

(٤٦) فاطر: ٦.

﴿ولقد همت به وهم بها لوْلا أن رأى برهان ربّه﴾(٤٧):

همّت به همَّ إرادة وهمَّ بها همَّ ميلٍ لا همَّ إرادة.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يَزيغُ قلوبُ فريق منهم ثم تاب عليهم﴾(٤٨):

فقال عن شيخه أبى الحسن رضى الله عنه: ذكر توبة من لا يذنب لئلّا يستوحش من أذنب لأنه ذكر النبى ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا، ثم قال:

وعن الثلاثة الذين خلِّفوا.

فذكر من لم يذنب ليؤنس من قد أذنب، فلو قال أوّلاً لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلّفوا لتفطّرت أكبادهم.

وقال رضى الله عنه:

التقوى فى كتاب الله على أقسام: تقوى النار، قال الله سبحانه:

﴿واتّقوا النار﴾(٤٩).

وتقوى اليوم:

﴿واتّقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله﴾(٥٠).

وتقوى الربوبية:

﴿يأيها الناس اتقوا ربَّكم﴾(٥١).

وتقوى الألوهية:

﴿واتّقوا الله﴾(٥٢).

وتقوى الأنية:

﴿واتّقونِ يا أولى الألباب﴾(٥٣).

وقال رضى الله عنه فى قوله عزّ وجل:

﴿سماعون للكذب أكّالون للسحت﴾(٥٤):

نزلت فى اليهود.

ومن كان من فقراء هذا الزمان مؤثرًا للسماع بهواه، آكلًا مما حرّمه مولاه، فهى نزغة يهودية؛

---

(٤٧) يوسف آية: ٢٤ – ويفسر بعضهم الآية الكريمة فيقول: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، وهو تفسير تسيغه اللغة. ونتيجته: أنه لم يهم بها لأنه رأى برهان ربه.

(٤٨) التوبة: ١١٧.

(٤٩) آل عمران: ١٣١.

(٥٠) البقرة: ٢٨١.

(٥١) النساء: ١.

(٥٢) النساء: ١.

(٥٣) البقرة: ١٩٧.

(٥٤) المائدة: ٤٢.

لأن القوّال يذكر العشق وما هو بعاشق، والمحبّة وماهو محب، والوجد وما هو متواجد، فالقوّال يقول الكذب والمستمع سمّاع له، ومن أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع فهو يصدق عليه قول الله تعالى:

﴿سمّاعون للكذب أكالون للسحت﴾.

وقال رضى الله عنه:

عبر بعض الصحابة على بعض اليهود فسمعهم يقرءون التوراة، فتخشعوا، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: اقرأ.

قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ:

﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم﴾(٥٥).

فعوتبوا إذ تخشعوا من غيره، وهم إنما تخشعوا من التوراة وهى كلام الله، فما ظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهى والغناء؟

وقال رضى الله عنه وقد سأله سائل: ياسيدى لم قال عيسى عليه السلام:

﴿إن تعذبهم فإنهم عبادُك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾(٥٦).

ولم يقل: الغفور الرحيم؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: إنما عدل عن قوله إنك أنت الغفور الرحيم إلى قوله:

﴿فإنك أنت العزيز الحكيم﴾.

لأنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم لكان شفاعة من عيسى عليه السلام لهم فى المغفرة ولا شفاعة فى كافر، ولأنه عُبِدَ من دون الله فاستحى من الشفاعة عنده وقد عُبِدَ معه.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾(٥٧).

فى هذه الآية مدح لسيد المرسلين ﷺ، أى أن هذا القرآن لا تثبت له الجبال لو أنزل عليها وأنت يا محمد ثبت لنزوله بالقوة الربانية التى أودعناها فيك، وفيها ذم للكافرين أى أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لخشع وتصدع وأنتم ما خشعتم ولا تصدعتم.

فائدة:

اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله تعالى ولكلام رسوله ﷺ بالمعانى الغريبة كما مضى من فهم الشيخ رضى الله عنه: يهب لمن يشاء إناثا الحسنات، ويهب لمن يشاء الذكور العلوم، أو يزوّجهم

---

(٥٥) العنكبوت: ٥١.

(٥٦) المائدة: ١١٨.

(٥٧) الحشر: ٢١.

obeikandl.com

ذكرانا وإناثا علومًا وحسنات، ويجعل من يشاء عقيمًا لا علم ولا حسنة، وكما مضى أيضًا من قوله عز وجل:

﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾.

فقال الشيخ: بقرة كل إنسان نفسه، والله أمركم بذبحها، وكما سيأتى إن شاء الله فى تفسير الأحاديث، فذلك ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت له الآية ودلت عليه فى عرف اللسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث، لمن فتح الله على قلبه، وقد جاء أنه عليه الصلاة والسلام قال:

«لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع».

فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم أن يقول لك ذو جدل أو معارضة: هذا إحالة لكلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ.

فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم، وربما فهموا من اللفظ ضد ما قصده واضعه، كما أخبرنا الشيخ الإمام مفتى الأنام تقى الدين محمد بن على القشيرى رحمه الله قال: كان ببغداد فقيه يقال له الجوزى، يقرئ اثنى عشر علما فخرج يوما قاصدا لمدرسته، فسمع منشدا ينشد:

إذا العشرون من شعبان ولّت ... فواصل شراب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار ... فقد ضاق الزمان على الصغار

فخرج هائما على وجهه حتى أتى مكة، ولم يزل مجاورا بها حتى مات.

وقرئ على الشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه قول القائل:

لو كان لى مسعد بالراح يسعدنى ... لما انتظرت لشرب الراح إفطارا
الراح شيء عجيب أنت شاربه ... فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا
يامن يلوم على صهباء صافية ... خذ الجنان ودعنى أسكن النارا

فقال إنسان هناك: لا تجوز قراءة هذه الأبيات. فقال الشيخ مكين الدين الأسمر للقارئ: اقرأ، هذا رجل محجوب!

ويكفيك فى هذا أن ثلاثة سمعوا مناديا يقول: «يا سعتر برى» ففهم كل منهم عن الله مخاطبة خوطب بها فى سره.

سمع الواحد: اسْعَ تَرَ بِرِّى.

وسمع الآخر: الساعة تَرى بِرِّى.

وسمع الآخر: ما أوسع بِرِّى.

فالمسموع واحد، واختلفت أفهام السامعين، كما قال سبحانه:

﴿تُسقَى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل﴾.

وقال سبحانه:

﴿قد علم كلُّ أناسٍ مشربَهم﴾(٥٨).

فأما الذى سمع: اسع تربرى، فمُريد دُلَّ على النهوض إلى الله بالأعمال ليستقبل الطريق بالجد، فقيل له: اسع إلينا بصدق المعاملة تر برنا بوجود المواصلة.

وأما الثانى فكان سالكا إلى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته الوصلة فقيل له، ترويحا على قلبه لما أحرقته نار الشغف: الساعة ترى برى.

وأما الآخر، فعارف كشف له عن وُسع الكرم فخوطب من حيث أشهد فسمع: ما أوسع برى.

وقال الشيخ محيى الدين بن عربى رضى الله عنه.

دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر، فاجتمع بها جماعة من المشايخ، فقدم الطعام، وعجزت الأوعية(٥٩)، وهناك وعاء زجاج جديد قد اتخذ للبول ولم يستعمل بعد، فغرف فيه رب المنزل الطعام، فالجماعة يأكلون، وإذا الوعاء يقول: منذ أكرمنى الله بأكل هؤلاء السادة منى لا أرضى لنفسى أن أكون بعد ذلك محلا للأذى، ثم انكسر نصفين.

قال الشيخ محيى الدين: فقلت للجمع، سمعتم ما قال الوعاء؟

قالوا : نعم.

قلت: ما سمعتم؟

فأعادوا القول الذى تقدم.

قال: فقلت: قال قولا غير ذلك.

قالوا: وما هو؟

قلت: قال: كذلك قلوبكم، قد أكرمها الله بالإيمان فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلًّا لنجاسة المعصية وحب الدنيا، جعلنا الله وإياكم من أولى الفهم عنه والتلقى منه بمنه وكرمه.

---

(٥٨) البقرة: ٦٠.

(٥٩) أى لم تكن الأوعية كافية.